أقدم مخطوط وصل إلينا عن بلاد العرب

موضوع هذا البحث وصف كتاب نادر نحسب أنه من أقدم ما وصل الينا فى موضوعه ، وهو التعريف بجزيرة العرب : قبائلها ، ومنازلها ، ومناهلها ، وما يتصل بذلك من شعر وأخبار ، لمؤلفه النحوى الأديب « أبى على الحسن بن عبدالله المعروف بلغدة » من أعلام منتصف القرن الثالث وأوائل الرابع للهجرة ، فى النحو واللغة والشعر والأدب .

وجدت نسخة من هذا الكتاب فى خزانة الكتب الملحقة بمديرية الآثار القديمة فى العراق ، بخط متأخر ، فنقلت عنها قبل ثلاث سنين نسخة ضمت الى القسم الخاص بالمخطوطات من خزانة « المجمع العلمى العراقى » ببغداد

ولا يخفى أن الكتب المؤلفة فى البلدان صنفان: صنف عنى فيه بذكر الحواضر والمدن المعمورة ، وهو ما يسمى علم (تقويم البلدان او تخطيط البلدان) ، وللعلماء الاسلاميين فيه كتب غير قليلة حذوا فيها حذو الحكماء الأولين . ومن هذا القبيل ما كتبه « ابن خرداذبه » و « الجيهانى » و « ابن الفقيه » و « البلخى » و « الأصطخرى » و « ابن حوقل » و « البشارى » ، فى كتبهم المشهورة التى تعرف بكتب المسالك والممالك ، أو كتب البلدان ، وآخرها « معجم البلدان » لياقوت ، وهو أنفس الكتب العربية فى هذا الموضوع وأجمعها وأغزرها مادة . وقد نشرت مجموعة من هذه الكتب فى (ليدن) أطلق عليها اسم « المكتبة الجغرافية » .

هذا هو الصنف الأول من كتب البلدان ، ولدينا صنف آخر موضوعه وصف البوادى العربية خاصة بما اشتملت عليه من سهول وجبال ومفاوز ومياه وأواجن ، كما وردت فى أخبار العرب وأشعارهم . وأكثر من عالج هذا الموضوع ، أو قصر بحثه على ذكر الديار العربية والمنازل البدوية ، هم طبقة أهل الأدب وأئمة اللغة ، وفى مقدمتهم

« الأصمعي » في كتابه الذي سماه « جزيرة العرب » ، وجاء بعده « السكوني » ، ثم « الهمداني » في كتابه « صفة جزيرة العرب » و « أبو الاشعث الكندي » في كتابه « جبال تهامة » و « العمراني » في كتاب له اسمه « جزيرة العرب » و « الغندجاني » في كتاب له هو « مياه العرب » و « وأبو زياد الكلابي » و « ابن ابى حفصة » في كتاب له دعاه « مناهل العرب » و « ابن الكلبي » في كتابه المسمى « اشتقاق البلدان » و « الزمخشري » في كتابه المسمى « كتاب الجبال والأمكنة والمياه » و « البكري » في كتاب « معجم ما استعجم » .

ولا بدّ لنا من القول بأن أكثر الأصول القديمة التي جرّدت للتعريف ببلاد العرب خاصة قد ضاعت ، فليس بين أيدينا منها الا النزر اليسير ، والا النتف المنقولة عنها في تضاعيف « معجم البلدان » أو « معجم ما استعجم » أو كتاب « المياه والأمكنة والجبال » للزمخشري .

وتدلّنا مقدمة (ياقوت) في معجمه أنه قد ظفر ببعض هذه الأصول ، ومن الكتب التي ظفر بها « كتاب جزيرة العرب » للأصمعي ، وهو يعد الآن من الكتب المفقودة ، و «كتاب بلاد العرب » للهمداني وكتاب « الزمخشري » وذيله لتلميذه « العمراني ». أما كتاب « معجم ما استعجم للبكري » ، فلم يظفر به ياقوت ، وهو كتاب معروف نشرت منه أجزاء في السنين الأخيرة .

وبناء على هذا يكون كتاب « لغدة » عن جزيرة العرب أقدم ما وصل الينا من الأصول أو النصوص التي يعول عليها في وصف البلاد المذكورة نقلا عن أبنائها من الأعراب في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة .

ومن الغريب أننا لم نجد لهذا الكتاب ـ أي كتاب « لغدة » ـ اشارة ما في مقدمة « معجم البلدان » ، ولا في مطاوى المعجم المذكور ، ولم نجد له ذكرا في ثبت مؤلفات « لغدة » الملحقة بترجمته في مكانها من « ارشاد الأريب » أو « معجم الأدباء » لياقوت نفسه ، كما لم نجد ذكرا للكتاب في غير « معجم الأدباء » من الكتب التي عنى مؤلفوها بترجمة « لغدة » الأديب . ومن هؤلاء « ابن النديم » في « الفهرست » ، و « حمزة الأصفهاني » في كتابه عن أصفهان ، و « السيوطي » في « البغية » ، و « الفيروز آبادي » في « البلغة » ، و « الزبيدي » في « تاج العروس ».

وقد جرت عادة « ياقوت الحموي » في كتابه « معجم البلدان » أن يضيف الى الكتاب كتباً أو فصولا من كتب من غير أن ينسب القول الى قائله ، وهذا كما ترون

لا يتفق مع شروط الأمانة فى النقل عند العلماء • والأمر أخفى من أن يظهر فى «معجم البلدان» الا بعد المقابلة والمقارنة بين ما ورد فيه من النصوص ، وبين النصوص التى اشتملت عليها الاصول القديمة • وقد سمى لنا «ياقوت» فى مقدمة معجمه بعض مآخذه عن جزيرة العرب ، ولكنه لم يسم فيها الكتاب المسمى «مشارق الأنوار» من تأليف «القاضى عياض» ، مع أنه سطا عليه ، وأكثر النقل عنه دون أن يشير الى ذلك الا مرة واحدة أو مرتين •

ولى على ذلك أدلة قاطعة تضمنها مقال خاص لابد من نشره فى المستقبل ان شاء الله •

على أننا نجد بعد المقارنة والتحقيق مشابهة ظاهرة بين نصوص كتاب «لغدة» هذا ، ونصوص أخرى نقلت عن كتب «الأصمعى» وطبقته من الأدباء فى بعض كتب البلدان والكتب المؤلفة فى جزيرة العرب ، ومردّ ذلك الى أن المصادر التى اعتمد عليها المؤلفون القدماء كانت مصادر واحدة على الأكثر •

مؤلف الكتاب

هو أبو على الحسن بن عبدالله المعروف بـ (لغدة) ترجم له ابن النديم ، وحمزة الأصفهانى ، وياقوت ، والسيوطى ، والفيروزابادى ، والزبيدى ، مجمعين على امامته بفنون الادب ، وتبحره فى النحو واللغة ، وعدوا له مؤلفات غير قليلة وان كانت موجزة خفيفة الحجم على الأكثر ، وأغلبها فى النحو واللغة والشعر •

كان لغدة من أقران «أبى حنيفة الدينورى» فى مشيخته ودرسه ، وبينهما مناظرات ، وقد حفظ فى صغره كتب أئمة اللغة والأدب «كالأصمعى» و «أبى زيد» و «أبى عبيدة» ، ثم تتبع ما فيها فامتحن بها الأعراب الوافدين على أصفهان ، وكانوا يفدون على «محمد بن يحيى بن أبان» فيضربون خيامهم بفناء داره ، حيث يقصدهم «أبو على» كل يوم ملقياً عليهم مسائل فى اللغة ، وقد ألف من أجوبتهم كتاباً سماه «النوادر» ، وهو كتاب كبير •

ويدعى «السيوطى» فى «البغية» ، كما يدعى سواه من المؤرخين أن «لغدة» زار «مصر» ، وأخذ عن علمائها واشتهر فيها • وليس ذلك ببعيد ، ففى كتابه هذا عن جزيرة العرب ما يدل على ذلك • وعلى كلٍّ فانه من العلماء الذين تغربوا عن أوطانهم طلباً للعلم ، فقد زار العراق وغيرها ، وكان همّه أينما حل الأخذ عن أعراب البلاد • ويبدو لنا من تصفح ترجمته فى «الفهرست» أنه اتصل بالخلفاء فى العراق ، ونال

الحظوة عندهم . وهو الى ذلك شاعر مجيد ، له شعر سائر ، وهو القائل :

خير اخوانك المشـارك فى الضر وابن الشريك فى الضر اينـا
الذى ان شهـدت سـرك فى القو ل ، وان غبت كان أذنا وعينـا

ومن تصفح « كتاب جزيرة العرب » يتضح لنا ما يؤيد أقوال المؤرخين أن « لغدة » الأديب كان معنياً بالأخذ عن فصحاء الأعراب ، استزادة فى الضبط والاتقان . وقد استطعنا أن نعد عشرين بليغا من بلغاء الأعراب الذين لقيهم فى حواضر الاسلام ، أو لقى من لقيهم ، فأكثر من الأخذ عنهم فى كتابة هذا . ولأكثر هؤلاء الأعراب ذكر فى كتب الأدب ، ومن ذلك كتب « الجاحظ » و « ابن النديم » ، وارشاد الأريب لياقوت .

ويروى « لغدة » ، بالاضافة الى ذلك ، عن طبقة قديمة من الأدباء والمؤرخين ، مثل « الأصمعى » « وأبى عبدالله الواقدى » ، ويروى عن فقيه آخر يدعوه « أبا جعفر » . والأعلام فى الكتاب بحاجة الى وضوح ، فهو يقول مثلا « أبو جعفر » مكتفياً بهذه الكنية . وقد ظهر لنا بعد تأمل كثير أنه يقصد « الطبرى » المؤرخ المشهور .

هذا وفى مقدمة من روى عنهم من ثقات الأعراب « الفزارى » و « أبو الورد العقيلى » و « زياد بن عبدالله العامرى » ، وهو ــ أعنى العامرى ــ أشهر هؤلاء الأعراب النجديين ، وأوسعهم علما بشؤون بلاده ، وخصوصا القسم الشرقى المتاخم للعراق ، اعتبر ذلك بقوله فى وادى الرمة « الرمة : واد بين أبانـان ، يستقبـل المطلـع ويجيء مـن المغرب ، وهو أكبر واد نعلمه بنجد » . فهذا الأعرابى اذا أراد أن يصف بلاده أرسل كلامه ارسال القضايا المسلمة ، لا يجاريه أحد فى وصف نجد خاصة بقسميها الشمالى والجنوبى او الأعلى والأسفل . وصف مراعى هذه البلاد واعداد مياهها وانجادها وأغوارها ومن فيها من القبائل والبطون ، وأسواقها وقراها ومزارعها ، الى غير ذلك . وقد أبدع العامرى فى وصف « حجر اليمامة » وضواحيها ، وأشار الى عظمتها ، وأن منبرها أحد المنابر الأولية ، وأنها منزل السلطان والجماعة ، وجل أهلها بنو عبيد . وكل ما فى الكتاب من فصول ممتعة فى وصف اليمامة وأحوالها من طبيعية واقتصادية وعمرانية ، فهو للعامرى المذكور ، واليمامة كما لا يخفى اسم يطلق على الديار النجدية فى كتب الشعر والأدب والبلدان القديمة . وفى وسعنا ان نقول والحالة هذه ان الكتاب فى جملته نقل عن العامرى ، فهو يعول عليه أكثر من بقية الأعراب ، ويعتمد على أقواله سلباً وايجاباً . فاذا أراد « لغدة » غمز رواية ، أو تضعيف قول في كتابه ، قال : « لم يعرفه

العامري • » واذا أراد عكس هذا ، قال : « قاله العامري » ، الى غير ذلك ، فكأن كلام « العامري » كلام أبدي بدوي وأفصح عربي ، وتعد أقواله في أحوال بلاده حجة قاطعة •

مميزات الكتاب

يمتاز « لغدة » في طريقته وأسلوبه بمميزات ، منها تعويله على المشاهدة والعيان ، لا على مجرد الرواية أو النقل عن الكتب فقط فطريقته في كتابه هذا تختلف عن طريقة غيره من المصنفين في موضوعه • ومن ذلك أن القبيلة عنده هي الاساس في البحث ، يذكر القبيلة أولا ثم يشرع في ذكر ما يضاف اليها من منازل ومناهل وغير ذلك • وهو يعقد لكل قبيلة فصلا يذكر فيه ديارها ومياهها ، فاذا انتهى من البحث في قبيلة مثلا ، قال : « فهذه مياه غني » ، ثم انتقل الى مياه قبائل أخرى من الضباب وجعفر ومياه أبي بكر ، ثم يأتي الى مياه جعدة وهزان ونمير وقشير وباهلة ، ومياه التيم وربيعة وما تملكه هذه القبائل من أرض أو واد ، ويعني ، مضافاً الى هذا ، بتعيين الحدود على وجه مفصل كل التفصيل • ولا نعرف كتابا آخر في جزيرة العرب سلك مؤلفه فيه هذا المسلك الطريف ، فتسمية القبائل على اختلاف فروعها وأفخاذها وذكر ما لها من أثماد ومنازل وغير ذلك ، يدل على خبرة لا مزيد عليها • ومن ذلك نعلم أن أسماء القرى والأودية المعروفة الآن بنجد ، هي أسماؤها القديمة • ويكاد يكون الكتاب في جملته خاصاً بتقويم البلاد المعروفة قديماً باليمامة وحديثاً بالديار النجدية •

درج أكثر المؤلفين في المسالك والممالك على وصف المناهل والمنازل الواقعة على قارعة الطريق ، طريق الحاج من العراق الى الحجاز ، وبالعكس • وليس في وسع هذه الطبقة من المؤلفين في المسالك والممالك أن ينتقلوا يمنة ويسرة وشرقاً وغرباً ، فهذا شأن من بذل جهده في البحث والاستقصاء العلمي ، وكانت الرحلة شغله الشاغل • فهل كان المؤلف يصف جزيرة العرب وصف مشاهد ؟ وهل رحل الى تلك البلاد ، أو أكثر من الاقامة بين قبائلها ، يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم ؟ أم اعتمد فقط على الثقات من الأعراب المنتسبين الى قبائلهم ، فروى أقوالهم ، وجمع كتابه من سماعاته عنهم ، كما فعل مع صاحبه « العامري » ؟ لا يخلو الأمر من غموض ، وليس في الكتاب نص قاطع على هذا أو ذاك ، الا أننا نستنتج استنتاجا من بعض نصوص هذا الكتاب أن المؤلف عاش في جزيرة العرب ، ورحل اليها ،اذ نجده يقول في بعض كلامه على ديار « بني بكر » ما هذا نصه : « والحباجبة » ماء لربيعة بن قرظ ، عليها نخل ، وليس على شيء مما سمينا نخل غيرها وغير الحرولة ، فان عليها نخلا محدثا ، فهذا وصف لا يخلو من

دقة ، وهو يشبه وصف مشاهد لهذه الأمكنة . ومثل ذلك قوله : « ولهم ـ يعني بني جشم ـ فوق ذلك عدامة ، وهي أبعد ماء نعلمه بنجد قعرا . » ومن ذلك أيضا قوله : « ومن الجبال الشموسان ، وفيها يقول الشاعر :

متى أنج من شعب الشموسين لم أعد اليه ولو منيتاني الأمانيا
فلست أرى شمساً اذا هي أقبلت ولا قمراً حتى يتم ثمانيا

وصدق ، لا يرى ـ أي القمر ـ الا بعد ثمان ليال . » فهذا التعقيب يدل على أن المعقب شاهد الجبلين المذكورين .

لغة الكتاب

لغة الكتاب في الذروة من الفصاحة والبلاغة ، وتمتاز بخلوها من الحشو والفضول وبعدها عن التكلف والتعقيد . فهي لغة الطبقة الأولى من أئمة الأدب « كالأصمعي » و « أبي زيد » و « ابن الأعرابي » . والنصوص فيه مروية عن أبناء البادية وفصحاء أعرابها ، فهو من أنفس كتب الأدب من حيث رواية الشعر البليغ وشرح ما فيه من الغريب .

مقاصد المؤلف

١ ـ وصف اليمامة : للمؤلف على ما يظهر عناية خاصة بوصف الديار النجدية ، أو بلاد اليمامة ، لم يسبقه اليها أحد فيما نعلم . ومن أجمل ما في هذا الكتاب وصف المراحل والمنازل بين حجر اليمامة ، أي بين نجد والأقطار المجاورة لها . ولعل منشأ هذه العناية لوصف الديار النجدية أن كثيرا ممن أخذ عنهم ، أو روى من أقوالهم ، انما كانوا من أعراب نجد العارفين بدخائلها ، الواقفين على مختلف شؤونها في ذلك الزمان .

٢ ـ وصف الحجاز : وقد عني مصنف الكتاب بوصف المدينة ، وكثير من أوديتها وجبالها ومياهها وحرارها وآطامها والأقاليم المجاورة لها ، كما وصف بعض البلاد الحجازية الواقعة شمال المدينة من وادي القرى الى منازل ثمود وديار قضاعة . ومجمل القول ، كانت للمؤلف عناية بوصف الحجاز ، ولكن دون عنايته بوصف الديار النجدية.

٣ ـ معادن جزيرة العرب : يعني المؤلف كثيرا بذكر الثروة المعدنية المطمورة في باطن الجزيرة العربية ، نجدية كانت أو حجازية ، ويشير الى ما فيها من ركاز وأفلاذ، وقد وصف معادن عدة من ذهب وفضة ونحاس وغير ذلك .

وعنايته بوصف هذه المعادن تفوق عناية من وصفها من البلدانيين « كالهمدانى » فى كتابه « صفة جزيرة العرب » ، وتفوق عناية « ياقوت الحموى » بوصف هذه المعادن فى كتابيه « معجم البلدان » و « المشترك » .

المؤلف الأديب

يعنى المؤلف ـ كما مر ـ بما قيل من الشعر فى المنازل والمناهل ـ وما أكثر ما قيل من الشعر فى هذا الباب ! ـ عناية أديب محقق . يعمد أولا الى شرح ما فى الشعر من الغريب ، ثم يذهب اذا اقتضى الأمر الى التنقيب عن حقيقة المنزل أو الدار أو المنهل الذى عناه الشاعر فى شعره ، فيخرج من ذلك برأى قاطع فى الموضوع ، مما يدل على معرفة بالغة بالأدب واللغة والشعر ، فضلا عن البلدان . خذ مثلا على ذلك قوله : « قتونا : جبل فى بلاد غطفان ، والذى عنى « كثير » ليس به ، ولكنه فى طريق اليمن لمن خرج من مكة». ولا يخلو الكتاب من كلمات بليغة للأعراب ، مثل قول صاحبه « العامرى » : « مررت بغنمى مرة فانفجت نعامة عن ثمانى بيضات » . هذا مضافاً الى فوائد أخرى قد نخرج باستقصائها عن القصد ، وبهذا القدر نكتفى من تعريف هذا السفر النفيس ، والتحفة الثمينة . والله ولىّ التوفيق .

محمد رضا الشبيبى